العرب
الخميس 2019/12/05
السنة 42 العدد 11549

الثقافة العربية لا تزال محافظة وتقليدية تخاف من الوافد والغريب

اليمني محمد أحمد عثمان: ثلاثة معايير لترجمة أي كتاب

على الرغم من قلة الأعمال التي قدمها القاص والروائي والمترجم اليمني محمد أحمد عثمان منذ تسعينات القرن الماضي سواء كانت قصا أو رواية أو ترجمة، إلا أن فضاءات أعماله على اختلافها تتمتع برؤى عميقة ذات خصوصية، ففي قصصه ورواياته تتجلى شفافية اللغة والأسلوب فيما تعترك الأبعاد الإنسانية، واختياراته في الترجمة تسير في الإطار ذاته. "العرب" التقته في هذا الحوار لنتعرف على رؤاه كمترجم.

محمد الحمامصي
كاتب مصري

يرى القاص والروائي والمترجم اليمني محمد أحمد عثمان أن الترجمة مثلها مثل كل نشاط كتابي آخر، نحن من يذهب إليه أولا ويراوده إما بدافع المحاكاة وإما الرغبة في التعبير وإما تحدي النفس. إلا أنه بتكرار التجربة، سرعان ما نقع تحت سطوته وجاذبيته ويصبح هو من يجتذبنا إليه ويخضعنا لمشيئته ويغدو هو من يختارنا ويطالبنا بدور الوسيط بين النص في لغته الأصلية وبين القارئ في اللغة التي نترجم إليها.

لكنه من ناحية أخرى يتحدث عن الترجمة من زاوية أنها هي من اختارته. إذ أنه قبل أن يدمج هذا النشاط في حياته كان كاتبا أنجز عدة نصوص قصصية وشعرية.

الترجمة وتحدياتها

يشير محمد أحمد عثمان إلى التحديات التي تواجه الترجمة والمترجم كوحدة؛ التحدي الأول يتمثل من منظور تجربته الشخصية في محدودية الاختيار. يقول "إن سوق الكتاب الأجنبية ضعيفة في الوطن العربي بل إنه في بلد كبلدي اليمن تكاد تنعدم هذه السوق، والحال كذلك إذ يجد المترجم نفسه أحيانا مضطرا لترجمة ما يقع تحت يده. صحيح أننا بتنا في هذا الزمن نملك طرائق لتجاوز هذه الصعوبة كالتسوق عن بعد، لكن كما تعرف ليس كل المترجمين يملكون حسابات بنكية كما أنهم ليسوا جميعا قادرين على التعامل مع تقنيات التواصل الحديثة".

ويتابع المترجم اليمني "ننتقل بعد ذلك إلى التحدي المتعلق بالنشر. ففي وطننا العربي الكبير لا يوجد سوى عدد قليل من الجهات ودور النشر المختصة بنشر الأعمال المترجمة والتي تقوم أعمالها على أساس التعاقد. لكن مشكلة هذه الجهات، إضافة إلى محدودية عددها، أنها لا تتعامل في الغالب إلا مع أسماء مكرسة ومعروفة، ومن النادر أن تجد دارا يمكنها أن تغامر مع مترجم مجهول. والحال كذلك، فمن الصعوبة بمكان بالنسبة إلى المترجم الجديد الحصول على عقد ترجمة من هذه الدور، ما يضطره أحيانا بل غالبا، إلى القبول بنشر عمله المترجم حتى بلا مقابل".

ويضيف عثمان "هنالك أيضا ذلك التحدي ذي الطبيعة الثقافية. إذ لا تزال ثقافتنا العربية بمجملها ثقافة محافظة وتقليدية ولديها مخاوفها من الوافد والغريب، وتميل بسبب ذلك إلى الانغلاق على نفسها داخل حدودها ومقولاتها، وينعكس هذا التحدي في تحدّ آخر يتمثل في انعدام البرامج، سواء على المستوى الحكومي أو الأهلي، المكرسة لدعم الترجمة".

ويرى عثمان أن هناك شروطا للترجمة من جهة العمل الأدبي أو الفكري نفسه كأن يكون قابلا للترجمة بمعنى أن يكون مكتوبا بلغة تتناسب مع إلمام المترجم بتلك اللغة، وهنالك شروط من ناحية المترجم أن يكون العمل المترجم متوافقا مع ذوقه واهتمامه ورؤاه الفكرية والجمالية، كما يمكننا على نفس المنوال الإشارة إلى شروط من جهة الثقافة والمجتمع الذي نترجم الكتاب إلى لغته، إذ يفترض أن يتناول الكتاب موضوعا هو محل اهتمام القارئ بالمعنيين العام والمتخصص لأننا في الأخير لن نغامر في ترجمة كتاب لن يقرأه أحد. ويلفت عثمان إلى أن هنالك ثلاثة معايير لترجمة أي كتاب؛ كأن يكون قد توافق مع اهتمامات المترجم، وأن يكون قابلا للترجمة أي قابلا للمرور من اللغة التي نترجم عنها إلى اللغة التي نترجم إليها، وأخيرا أن يلبي حاجة عمومية لدى القراء الموجه إليهم.

ويتابع "ينبغي أن نعيد هيكلة التعليم في الوطن العربي بحيث تتعزز دراسة اللغات الأجنبية في المدارس والجامعات، وبكون إجادة لغة أجنبية شرطا من شروط التعليم العالي، فليس المترجم فقط بل كل متخصص في مجال ما من المجالات العلمية أو الأدبية ويجيد لغة أجنبية مطالب بترجمة كتاب واحد على الأقل أو بضعة كتب إلى لغته في سياق خدمة هذه الثقافة التي هي ثقافته. وبالنسبة إلى الترجمة الأدبية لا أظن أن كل المترجمين قادرون على ترجمة عمل أدبي، فالأدب هو تخصص له قاموسه الخاص المختلف بهذه الدرجة أو تلك عن المجالات الأخرى، كما أن له مساربه النفسية والمزاجية التي لا يجيدها إلا أديب أو مترجم قريب من الأدب. لهذا قد لا أتفق مع التعميم الوارد من أن على كل مترجم بالإطلاق أن يترجم عملا أدبيا إلى لغته".

اهتمام بالذات

يؤكد عثمان أن دور المجال الثقافي والاهتمام به قد تراجعا تراجعا ملحوظا خلال العقود الأخيرة لصالح مجالات أخرى كالمجال السياسي أو بالأخص مجال الميديا ووسائل الاتصالات الحديثة التي بات المنتج الذي تقدمه محور اهتمام الأجيال الجديدة، فقبل هذه الحقبة كانت هنالك تراتبية، إن لم تكن لصالح الثقافة فقد كانت على الأقل في مستوى واحد مع السياسة إذ كان المثقف هو من يرسم الخطط ويوجه السياسي نحو أولويات المجتمع واحتياجاته. لكن الأمور تغيرت اليوم وحل محل المثقف مقدم ومعد البرامج التلفزيونية والمشرفون على مواقع التواصل الاجتماعي وإلى ما هنالك من سدنة.

> الترجمة يقع على عاتقها دور كبير لتبديد سوء الفهم الحاصل حاليا بين الثقافة العربية والإسلامية وثقافات العالم

ويتابع "لقد انتهى دور الشاعر النبي والمثقف النبي الذي عرفناه خلال عقود الستينات السبعينات وحتى الثمانينات وحل محله الشاعر والمثقف الذي لا يكاد اهتمامه يتجاوز ذاته، وهذه كلها تغييرات يجب أن نأخذها بعين الاعتبار عندما نتحدث عن المجال الثقافي وتراجع دوره. لكن لا ننسى أيضا الانهيار في مؤسسة التعليم وتراجع مخرجاته فهذه المؤسسة المهمة في حياة كل شعب لم تعد تصب في اتجاه تفتح المدارك الثقافية للناس، وكل ما تعمله حاليا تخريج جيل نافر من الكتاب، نافر من التساؤل، نافر من التأمل وجل ما يهمه الإيفاء بحاجاته الأساسية.. والحال كذلك كيف لنا أن نأمل بحياة ثقافية فاعلة في حياة الناس".

ويقول "يقع على عاتق الترجمة دور كبير في تبديد سوء الفهم الحاصل حاليا بين الثقافات وخصوصا بين الثقافة العربية والإسلامية وثقافات العالم المتاخمة وخصوصا على الجانب الآخر من البحر المتوسط والمحيط الأطلسي. فقد تدفقت خلال العقدين الماضين، منذ 11 سبتمبر وما تلاه من صعود لظاهرة الإرهاب ومكافحتها وحتى اليوم، الكثير من غيوم سوء الفهم بين ثقافتنا العربية والإسلامية وسائر الثقافات على خلفية العمليات الإرهابية التي شهدها العالم في العقدين الماضيين. والترجمة اليوم مطالبة جنبا إلى جنب مع الدبلوماسية بإعادة تصحيح سوء الفهم وذلك من خلال نقل المنتوجات الثقافية والإبداعية من وإلى العربية. لكن من العربية إلى الثقافات الأخرى أكثر كي ترى هذه الثقافات أن العربي والمسلم له جانب آخر، ذلك الجانب من الصورة الذي حجبته أدخنة هذه الصراعات وأعمال العنف".

ويختم عثمان برؤيته حول موقع الترجمة ضمن المشهد الثقافي العربي قائلا "لكي نأخذ فكرة عن موقع الترجمة في الثقافة العربية ما علينا سوى أن نلقي نظرة على هذه الإحصائية حول نسبة الترجمة في الوطن العربي مقارنة بدول أخرى، والتي وردت في مقالة منشورة على الإنترنت وهي إحصائية، كما يقول صاحب المقالة، نفذتها منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونيسكو) التي تبين أن العرب البالغ عددهم أكثر من 270 مليون نسمة لا يترجمون سنويا سوى 475 كتابا، في حين تترجم إسبانيا البالغ عدد سكانها 38 مليون نسمة أكثر من 10 آلاف كتاب سنويا".

ويدلل على كلامه بأنه بينما يحظى كل مليون مواطن في المجر بنحو 519 كتابا سنويا ويبلغ نصيب كل مليون إسباني في العام 920 كتابا، فإن متوسط عدد الكتب المترجمة في العالم العربي لا يتعدى 4.4 كتب لكل مليون مواطن سنويا.

الترجمة مثل الدبلوماسية ودورها كبير

الموسيقى والفلسفة بين الأفلاطونية والصحوية

لدينا ما يقارب ستة ملايين طالب وطالبة، وثلاثون ألف مدرسة، هذا العدد هو الاختبار الوزاري القادم. فقد آن الأوان لاجتماع وزاري بين التعليم والثقافة والإعلام لوضع خطط آنية ومستقبلية غير متناقضة، ينسجم فيها الطالب بين ما يتعلمه داخل المدرسة وبين ما يعيشه خارجها، لا تعكر صفوها المفارقات التي كانت قائمة إبان هيمنة تيار الصحوة بين تعليمه المدرسي، وبين ثقافته الوطنية، وبين إعلامه الرسمي.

زكي الصدير
كاتب سعودي

كان متوقعا أن يجتمع الوزيران السعوديان؛ وزير الثقافة بدر بن عبدالله آل سعود مع وزير التعليم حمد آل الشيخ، فبين أيديهما ملفات ساخنة ينتظر، منذ انطلاق رؤية المملكة 2030، النظر إليها بصورة مفصلية وجادة وعاجلة، ملفات غير قابلة للتأجيل والتسويف، وعلى رأسها ملف تطوير المناهج الدراسية، واجتثاث آثار الصحوة منها، بالإضافة إلى توسيع مناهجها لتشمل تعليم المسرح والفلسفة والموسيقى في خططها الدراسية.

حين اجتمع الوزيران الشهر الماضي في مبنى وزارة الثقافة بدرعية الرياض بدأ المثقفون والأكاديميون في استشراف الحالة التي ستكون عليها الأمور بعد اجتماعهما، وما هي الملفات والقضايا التي تناولاها؟ وما هي القرارات التي اتخذاها؟ خصوصا وأن وزارتيهما تحظيان بميزانية ضخمة، وباهتمام استثنائي من القيادة السعودية. لم يخرج الوزيران من اجتماعهما إلا بتغريدة كتبها وزير الثقافة تقول "الموسيقى والمسرح والفنون في تعليمنا. والقادم أجمل". كيف؟ ومتى؟ وأين؟ لا أحد يعلم.

ضمن المتغيرات السريعة التي تعيشها المملكة على المستوى السياسي والاجتماعي والثقافي كشف وزير التعليم السابق أحمد العيسى، خلال مشاركته في الجلسة الرئيسة من المؤتمر الدولي لتقويم التعليم المنعقد العام الماضي، عن تطوير جديد قريب لمناهج المرحلة الثانوية، حيث ذكر بأن الوزارة تمتلك مقررا جديدا للتفكير الفلسفي الناقد، بالإضافة إلى مقرر لمبادئ القانون. لكننا حتى الآن لم نر شيئا مما بشّر به العيسى. فقد كانت مجرد صورة لمسودة "منهج فلسفي" موضوعة على طاولة الاجتماع في فندق ماريوت بالرياض.

هذا التطوير كان مطلبا جوهريا منذ وقت طويل، غير أن تيار الصحوة كان السد المنيع الذي حال دون تحقيقه خلال الأربعين سنة الماضية. ممّا عزز غياب الحالة النقدية والتفكيكية والفنية لدى الطلاب الذين لقّنوا، لعقود متلاحقة، بأن المنطق زندقة، وأن الفلسفة باب للشر، وأن الموسيقى حرام لا يقربها إلا "المخنّثون". فقد كان مجرد التفكير في التطوير ضربا من الجنون.

واقع التعليم السعودي يحتاج إلى نقلة حقيقية من الحالة التلقينية إلى الحالة الإبداعية، وهذا التحول لا بد له من خطة استراتيجية، لا توضع على نحو استشرافي، وإنما بناء على حيثيات ووقائع مدروسة تقوم مؤسسات الدولة ووزاراتها على إرساء قواعدها بالتدريج.

في الحقيقة، لا يمكن بين يوم وليلة أن نغمض أعيننا على واقع تعليمي وثقافي بائس لنفتحها في يوم آخر على حلم أفلاطوني، فالأمر يحتاج إلى إعداد لمباني المدارس، وإلى الكوادر التعليمية المتخصصة، التي يجب أن تكون ضمن خطط الوزارة في ابتعاثها، ليس في فترة الدراسة الجامعية، بل تبدأ منذ التعليم المبكر.

ينبغي على وزارة التعليم بالتنسيق مع الثقافة أن تجترح ذلك عبر مسارين، الأول في التعاقد المباشر مع معلمين مختصين من جامعات ومدارس عالمية أو عربية ذات خبرة وتاريخ في الفسلفة والموسيقى، والثاني وضع الخطط والمناهج وتشكيلها منذ المرحلة الابتدائية حتى الجامعية، ليتسنى الحصول على كوادر متعلمة تعليما داخليا وخارجيا خلال الـ12 سنة المقبلة.

لا يكفي أن ندفع الفلسفة والموسيقى داخل الخطة العامة لمناهجنا منذ السنة المقبلة، ثم نوعز لمدرسين غير متخصصين بتدريس الفلسفة، أو أن نتعاقد مع فناني وموسيقيي الجمعيات الثقافية لتدريس الموسيقى. فهؤلاء ليسوا متخصصين، ولا علاقة لهم بالتدريس الأكاديمي.

لا يمكن بحال من الأحوال، تحت ذريعة عدم توفر الكوادر، أن نكلّف معلم الاجتماعيات، الذي في الغالب تخرج من الجامعة بتقدير "مقبول" بتدريس الفلسفة التي تحتاج في تدريسها إلى نخبة من عباقرة العالم ومفكريها، إنها تخصص لا يدرك عمقه ومعناه إلا عقول نادرة وقليلة. الأمر نفسه لا بد أن يراعى في تعليم الموسيقى، فهي علم وفن لا يمكن أن نتعاقد في تعليمه مع الهواة غير المتخصصين في جمعيات الثقافة والفنون.

> ليس ممكنا أن نغمض أعيننا اليوم على واقع تعليمي وثقافي بائس لنفتحها في الغد على حلم أفلاطوني

وفي ضوء ذلك، يجب مراعاة عدم تشويش الطلاب الصغار بمناهج تحمل متناقضاتها بين دفتيها، فحين يدرس الطالب في مادة الفقه أنه من تمنطق فقد تزندق، وأن الفلسفة باب من أبواب الشر، ولا يجوز تعلمها، وحين يدرس أن الموسيقى مزمار من مزامير الشيطان، حين يدرس ذلك كله على يد معلم التربية الإسلامية في الحصة الأولى، ثم يدخل معلم الفلسفة في الحصة الثانية، ويزوره معلم الموسيقى في الحصة الثالثة، سيعيش الطالب حالة من حالات الانفصام والانفصال والنفاق الفكري والاجتماعي بين ماهو قائم، وبين ما هو مأمول.

اجتثاث ما تبقى من آثار الصحوة في المناهج هو مطلب حقيقي ومهم يجب أن تبدأ وزارة التعليم به قبل أي تعاون وزاري أو تطوير يمكن أن تفكر فيه في خططها الطويلة أو القصيرة، فقد آن الأوان لذلك بعد أن وعدت القيادة السعودية بإنهاء صفحتهم التاريخية إلى الأبد.

تعليم الفنون يحتاج إلى بحث ثقافي شامل